

القصص الدني
العلقة الرابعة
العرب في أوربا

شقائق

عبد الحميد جودة السحار

شقاق

١

الفرقة شائعة بين مسلمي الأندلس ، والحرب دائرة بين ملوك الطوائف . ابن عباد ملك أشبيلية يعاقد ألفونسو ملك قشتالة ، على حرب ابن ذي النون ، للاستيلاء على طليطلة . وألفونسو ينتهر فرصة انقسام المسلمين ، ليوسع رقعة ملكه ، ويقوى سلطانه ، على حساب ملوك الطوائف المتنازعين . وجمع ألفونسو ملك قشتالة جموعه ، وانطلق إلى طليطلة ، وحاصرها حتى خربت ، وشدد الحصار عليها حتى اشتد الجوع بأهلها . ولم يخف على عقلاء المسلمين أن هذا الانقسام سيؤدى إلى انهيار صرح الإسلام في الأندلس ، وأن سقوط طليطلة معناه بداية النهاية للمسلمين في أوربة . فنهض

أبو الوليد قاضى باجة يطوف بالولايات ، يدعو إلى
الاتحاد ونبذ الخلاف ، للإبقاء على الأندلس
الإسلامية . ولكن ذهبَتْ صِيحَاتُهُ أَدْرَاجَ الرِّيحِ ،
فقد أَعْمَتْ شَهَوَاتُ الْمُلُوكِ بَصَائِرَهُمْ ، فَلَجُّوا فِي
عَدَاوَاتِهِمْ ، وَظَلَّتِ الْحُرُوبُ الْأَهْلِيَّةُ حَامِيَةَ الْوَطَنِ ،
وَالْعَدُوُّ يَتَرَبَّصُّ الدَّوَائِرَ بِهِمْ جَمِيعًا .

وَوَقَفَ مُلُوكُ الطَّوَانِفِ جَامِدِينَ ، يَهْدُونَ حِصَارَ
أَلْفُونَسُو لِطُلَيْطُلَةَ ، دُونَ أَنْ يُحَرِّكَوْا سَاكِنِيهَا .
وَحُوصِرَتِ الْمَدِينَةُ حِصَارًا شَدِيدًا ، وَتُرِكَتْ لِمَصِيرِهَا
الْمَحْتَمِ ، وَرَأَى مُسْلِمُو طُلَيْطُلَةَ خِذْلَانِ إِخْوَانِهِمْ هُمْ ،
وَأَنَّهُ لَا أَمَلَ لَهُمْ فِي الْحَيَاةِ إِلَّا بِالتَّسْلِيمِ ، فَاتَّفَقُوا مَعَ
مَلِكِهِمْ « الْقَادِر » ، عَلَى أَنْ يَبْعَثُوا إِلَى أَلْفُونَسُو
يَطْلُبُونَ الصُّلْحَ .

وَمَشَى الرَّسُلُ إِلَى أَلْفُونَسُو ، فَسَدَّ أُذُنَيْهِ عَنْ
رِسَالَتِهِمْ ، وَأَبَى أَنْ يُصْغِيَ إِلَيْهِمْ قَبْلَ تَسْلِيمِ الْمَدِينَةِ ،

فأغضب ذلك رجالات المسلمين المحاصرين ،
وعزموا على أن يدافعوا عن مدينتهم وشرفهم ،
حتى الرَّمق الأخير . ولكن الغوغاء طلبوا التسليم ،
فما كان لهم همٌّ إلا أن يُنقذوا أرواحهم من الهلاك .
وأرغم رؤساء المسلمين على إنقاذ وفدٍ إلى
الفونسو ملك قشتالة ، يعرضُ عليه تسليم المدينة ،
على أن يعدَّ بتأمين الناس على أرواحهم وأموالهم ،
والإبقاء على حرية الدين ؛ فوعد الفونسو بذلك .
ورحل « القادر » ملك طليطلة عنها ، وسلمت
المدينة للفونسو ، فطار صيته ، وازداد قوة ؛ ولاح
أن بقاء المسلمين في الأندلس صار مرهوناً باتحاد
رؤسائهم ، ولكن المطامع الشخصية طمسَتْ
قلوبهم ، فاستمرُّوا في الشقاق البغيض .
وتنمَّر الفونسو ، وسفرَ عن وجهه الحقيقي ، فإذا
به عدوٌّ لكل حاكم مسلم ، لا فرقَ عنده بين

ابن عباد الذي آزره يوم اغار على الممالك النصرانية الصغيرة ، مثل ليون وجليقية ونافار ، وبين يحيى ابن ذى النون الذي حاربته في طليطلة . أرسل جنوده إلى إمارة سرقسطة ، فهب ملكها أبو جعفر ابن هود ، يدافع عنها دفاع المستميت ، وأرسل إلى ابن الأفتس ملك بطليوس يدعو إلى تسليم بعض حصونه ، وطالب المعتمد بن عباد ملك أشبيلية ، الذي أعانه يوم تولى ملكه وهو مهيض الجناح ، حتى اشتد ساعده ، بتسليم بعض حصونه ، فثار ابن عباد لذلك ، وراح يتأهب للقتال .

وكتب ابن عباد إلى ملوك غرناطة والمريّة وبطليوس يدعوهم للاجتماع والتشاور ، فالتأم عقدهم في أشبيلية ، وقرروا دعوة يوسف بن تاشفين ، أمير المرابطين بالمغرب ، للذود عن الإسلام في الأندلس .

وصل رُسُلُ ابنِ عَبَّادٍ إلى يوسُفَ بنِ تاشفين ،
 يطلبون منه إنقاذَ الإسلامِ من سيطرة ملوكِ أسبانيا ،
 فقبلَ أن يذهبَ بنفسِه للجهاد ، على أن يُعطيه ابنُ
 عَبَّادٍ ثغرَ الجزيرة ، حتى يكفلَ بذلكَ سَلامةَ طريقِه
 في الذهابِ والعودة ، فأجابَه ابنُ عَبَّادٍ إلى ذلك .

وخرجَ يوسُفُ في جيشِ جرَّارٍ ، يبغي الجهادَ في
 سبيلِ اللّهِ . ولما بلغَ الجزيرةَ استقبلَه ابنُ عَبَّادٍ ،
 وسارَ في رُفقتِه لقتالِ الفونسو ، الذي بدأ نَجْمُه
 يتألقُ في سماءِ الأندلسِ .

كانَ الفونسو في حربٍ مع ابنِ هود ، أميرِ
 سَرَقُسطَة ؛ فلما بلغَه عبورُ يوسُفَ ، تركَ ابنُ هود ،
 وأهابَ بملوكِ أراجون ونافار وغيرهما أن يهْبُوا
 لمُؤازرَتِه في قتالِ المسلمين ، فلبّوا دَعْوَتَه ، وتقاطروا

عليه من كل صوب ، يتصايحون صيحات القتال .
وخرج يوسف من أشبيلية ، وحوله جنوده البربر
وجنود المسلمين من أهل الأندلس ، والتقى الجمعان
في سهل الزلاقة ، المسيحيون في ثمانين ألفا ،
والمسلمون في عشرين ألفا ؛ ودارت رحى معركة
رهيبة ، معركة أطاحت فيها رءوس عشرين ألفا ،
انتهت بفرار ألفونسو ، وانتصار المسلمين ، ولم
تكتف الجيوش الإسلامية بهذا النصر ، بل تقدمت
إلى الشمال تسترد القلاع والحصون .

وعاد يوسف بن تاشفين إلى أشبيلية منتصرا ،
فأعاد الثقة في النفوس إلى حين .

انطلق يوسف بن تاشفين في القصر وهو مأخوذ : نقوش
بديعة تحير الأبواب ، وأعمدة رخامية هائلة ، عليها عقود
تحمل السقف الذي غطي بالزخارف ، والحيطان على
ارتفاع مزين قد غطيت بالفسيفساء الجميلة .

وسارَ إلى قاعةِ الاستقبال ، تحوطُه الفخامة ،
وجلسَ تحتَ القبةِ الفخمة ، وقد راحَ ينظرُ إلى
أعمدةِ المرمرِ الرائعة ، التي حملتْ شُرُفاتِ ثلاثا ،
تُطلُّ على القاعة .

وجلسَ ابنُ عَبَّادٍ إلى جوارِ يوسف ، الذي جاءَ من
الصحراءِ لإنقاذِ الإسلام ، وأظهرَ له ضروبا من
الحفاوةِ والكرم ، فإذا بالشُعراءِ يتوافدونَ يترنمونَ
بكرمِ ابنِ عَبَّادٍ وشجاعةِ ابنِ تاشفين ، وإذا بالنبلاءِ
والعظماءِ يتقاطرونَ على القصرِ مُهنئين ، وإذا بالملاّ
من الناسِ يتصايحونَ خارجَ القصرِ فرحين ، فقد
ثَبَّتَ ابنُ تاشفينَ أقدامَ الإسلامِ في الأندلس ، بعدَ أن
أوشكتْ ريحُه أن تذهبَ من تلكَ البلاد .

٣

وعادَ يوسفُ بنُ تاشفينَ إلى المغرب ، ولكنَّ جهالَ
الأندلسِ لم يبرحْ ذِهنَه . وإنَّه ليرى رياضَها

ورياحيتها وجناتها وثمارها وخيرها الوفير ، فيشغل
فكره بالاستيلاء عليها ، والقضاء على ملوك
الطوائف الغارقين في اللهو والمجون ، ليعيد للإسلام
مجده الأول .

إنَّ المعتمد بن عباد ، أقوى ملوك الطوائف ،
وأكثرهم ذكاءً وكياسةً وشجاعةً ، أطلق للذاتيه
العنان ، حتى إنه يوم عزم على إرسال حظاياهُ من
قرطبة إلى أشبيلية ، خرجَ معهنَّ يشيعهنَّ ، فسأيرهنَّ
من أولِّ الليل إلى الصُّبح ، فودَّعهنَّ ورجعَ ينشدُ :
سأيرُتْهم والليلُ أغفلُ ثوبه

حتى تبدَّى للنواظر معلما

فوقفتُ ثمَّ مودَّعا وتسلمتُ

منى يدُ الإصباح تلك الأنجما

وظلَّ ابنُ تاشفينَ يفكرُ في أمرِ الأندلس ، بعد أن
تمَّ له الصُّلحُ مع ألفونسو ، وعقدَ معه مُعاهدةً مدَّتْها

خمس سنين ، تعهد فيها الفونسو ألا يتعرض
للمسلمين ، وأن يرفع الجزية التي كان قد وضعها
ملوك الطوائف . واستولت عليه فكرة الاستيلاء
على الأندلس ، حتى إذا ما اشتكى إليه أهل
الأندلس من ظلم ملوكهم ، وارتفاع الضرائب التي
يضعونها فوق كواهلهم ، جمع جيوشه لغزو
الأندلس ، ليضع المظالم عن أهلها .

وبلغت جيوشه الجزيرة الخضراء ، فخافه ملوك
الطوائف ، وقطعوا الميرة عن جيشه ، وأرادوا أن
يصدوه عن البلاد ، فاتفق ابن عباد مع ملوك الفرنجة
على قتاله .

وتقدمت جيوش ابن تاشفين ، تشق طريقها نحو
حواضر الأندلس ، فسقطت إشبيلية ، ووقع
ابن عباد في يد ابن تاشفين ، فبعث به إلى أغمات في
مراكش ، ليمضي بقية عمره سجيناً ، فراشه

الغبراء ، وغطاؤه صفحة الهواء ، وأنيسه البكاء ،
 وقرينه الداء ، وسعيره كل نوع من أنواع البلاء .
 وقصد يوسف بطليموس ، وقبض على ملكها ابن
 الأفطس وقتله . ودانت له الأندلس كلها .
 وأصبحت في حوزته إلا مرقسطة ، فإنها بقيت في
 يد بني هود ، لاعتصامهم بالقونسو ، ولبعدها عن
 القوة المتدفقة من المغرب .

قضى ابن تاشفين مرة واحدة على الملوك الذين
 كانوا يديرون ما في حوزتهم من بلاد ، إدارة كادت
 تلحق بالإسلام البوار ؛ ووطد ملكه في الأندلس ،
 فكان ملكاً قوياً ، مرهوب الجانب ، جذد الأمل في
 بقاء الإسلام في أسبانيا ، بعد أن أشرف على
 الزوال . وقد أمد يوسف ، بانتصاره في الزلافة على
 جيوش ألفونسو ، في عمر الإسلام بالأندلس أربعة
 قرون .

مات يوسف ، واستمرت الأندلسُ في حكم
 المرابطين ندين كانوا حشيش ، لا يعرفون أساليب
 لسياسة وكانوا جامدين ، بعيدين عن التسامح
 الذي اتفق عليه أهل الأندلس ، فمن حكمواهم من الملوك .
 ودب الشقاق بين أحفاد ابن تاشفين ، طمعا في
 الملك ، ولاح أن الأندلس وشيكة الوقوع في أيدي
 الأسبان ، الذين كانوا ينتهزون فرص الشقاق بين
 المسلمين ، ليتدبروا من العرب المتنازعين المعاقلة
 والخصون . ولكن ثار المغرب على المرابطين في أواخر
 القرن الخامس الهجري ، فسقطت دولتهم ، وقامت
 دولة الموحدين ، على يد المهدي بن تومرت .
 ومات المهدي بن تومرت سنة ٥٢٤ هجرية ،
 فاتفقت رجالات المغرب على مبايعة عبد المؤمن

ابنِ عليّ ، وكان أكثرَ رجالِ المَهديِّ علَمًا وفضلاً
ودَهَاء .

سارَ عبدُ المؤمنِ سيرةَ حميدة ، فأحبه الناس ،
وكان أولَ من تسمّى في المغربِ بأميرِ المؤمنين .
بعثَ إلى الأندلسِ جيشًا من الموحّدين ، فتغلّبَ على
غربيّة ، ثمّ حاصرَ المريّة ، فاستغاثَ من كان فيها
بألفونسو ، فأرسلَ إليهم حليفه محمدُ بنَ مرَدْنِيش ،
على رأسِ جيشٍ من النصارى والمسيحيّين ، فكسره
عبدُ المؤمنِ .

وظلّت جيوشُ عبدِ المؤمنِ في تقدّمِها ، تفتحُ
الأندلسَ بلدًا بعدَ آخر ، حتى مات ، وخلفه ابنُه
يوسف ، فاستمرَّ في جهادِهِ ، حتى تمَّ له فتحُ
الأندلسِ جميعاً .

ودخلَ يوسفُ أشبيليةً ، وبنى جامعَها ، وأقامَ
جسرها ، واستتبَّ له الأمر . وعادَ الأسبانُ إلى

حُصُونَهُمْ ، يَرُصُّدُونَ فُرُصَ الضَّعْفِ ، لِيَنْقُضُوا عَلَى
الْمُسْلِمِينَ ، وَيَضْرِبُوا ضَرْبَتَهُمُ الْقَاضِيَةَ .

وَتَوَلَّى الْأَمْرَ بَعْدَهُ وَلِذَلِكَ الْمَنْصُورُ يَعْقُوبُ ، فَاكْمَلَ
جَامِعَ أَشْبِيلَةَ حَتَّى صَارَ إِحْدَى عِجَائِبِ الدُّنْيَا ،
وَخَرَجَ لِحَرْبِ الْفُونَسُو ، فَاتَّحَدَ مَلُوكُ أَوْرَبَا ،
وَسَارُوا لِحَرْبِ الْمَنْصُورِ .

وَالْتَقَى الْجَمْعَانِ فِي الْأَرْكُوسِ (الْكَرْك) ،
وَدَارَتْ رَحَى مَعْرَكَةٍ رَهِيْبَةٍ ، قُتِلَ فِيهَا مِنَ النَّصَارَى
أَكْثَرُ مِنْ مِائَةِ أَلْفٍ ، وَغَنِمَ الْمُسْلِمُونَ غَنَائِمَ هَائِلَةً ،
حَتَّى إِنَّ الْعَرَبَ كَانُوا يَبِيعُونَ الْأَسِيرَ بِدِرْهَمٍ ،
وَالسَّيْفَ بِنِصْفِ دِرْهَمٍ ، وَالْجِمَارَ بِدِرْهَمٍ ، وَالْفَرَسَ
بِخَمْسَةِ دِرْهَمٍ .

وَانْطَلَقَ الْمَنْصُورُ يَعْقُوبُ إِلَى طُلَيْطَلَةَ ، عَاصِمَةِ
الْفُونَسُو الثَّامِنِ ؛ وَحَاصَرَهَا ، فَأَخَذَ الْجَهْدَ بِخُنَاقِ
أَهْلِهَا ، وَكَادَتْ الْمَدِينَةُ تَخْرُ سَاجِدَةً تَحْتَ أَقْدَامِ

الأمير ، ولكن أم ألفونسو وبناته وحرمة خرجوا إلى
يعقوب وخرّوا ساجدين تحت أقدام المنصور
يعقوب ، يتوسّلون ويرجون ويلجفون في الرجاء ،
واستغاثوا به وبمروءته ، فأكرمهم ، وأعادهم إلى
مقرهم معزّات مكرّمات ، ورفع الحصار عن
طليطلة ، وما دار بخليده أن أبناء هؤلاء الذين
أكرمهم سيضطهدون العرب الذين كتب عليهم أن
يشاهدوا زوال الملك العربي من الأندلس ، أشدّ
اضطهاد .

٥

ومات يعقوب المنصور ! وفي سنة ٦٠٩ هجرية ،
انطلق ابنه عبد الله محمد الناصر إلى الأندلس ، في
سِتِّ مائة ألف مقاتل ، ليفتح معاقل أوربة . وبلغ
البابا خروجه ، فأعلن الحرب المقدّسة ، فإذا بالجيوش
النصرانية تندفق من إيطاليا وفرنسا وألمانيا إلى أسبانيا
لملاقاته .

اعجب الناصر بكثرة جيوشه ، فراح يفتك في
سيره برجالات الأندلس ، فوزيره ابن جامع أشار
عليه بذلك ، ليخلو له وجه الأندلس ، دون الأمراء
المسلمين جميعا . ولم يستشير رؤساء البلاد وقادتها ،
بل أهمل أمرهم ، مغترا بالجيش الجرار الذي يلقى
الرعب في قلوب أعدائه .

وفي سهول نافار وتولوزا ، على بعد مائة وأربعين
كيلومترا من قرطبة ، في ذلك المكان الذي يُسميه
العرب العقاب ، لكثرة ما كان فيه من العقبات ،
التقت جيوش أوربة المتحدة بجيوش الناصر ،
وهزمتها هزيمة نكراء ، كان من أثرها تمزق جيوش
المسلمين ، وسقوط زهرة شبابهم قتلى ، فلاح لكل
بصير أن أيام العرب الأخيرة في الأندلس قد
لاحت ، وأن شمسهم أوشكت أن تغيب .